مقدمة التحقيق

بقلم

الشيخ شعيب الأرنؤوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فإنَّ هٰذا السِّفْرَ العظيمَ الذي نُقدمه لِلقراء يُعَدُّ مِن أعظم كتبِ التراجم التي انتَهتْ إلينا مِن تُراث الأقدمين ترتيباً وتنقيحاً، وتوثُّقاً وإحكاماً، وإحاطةً وشُمولاً، فهو يُبينُ عن سَعة اطِّلاع المؤلف رحمه الله على كل ما سبقه مِن تواليفَ في موضوعه، ودِرايةٍ تامة بأحوال المترجمين، وبكل ما قِيل في حقِّهم، وقُدرةٍ بارعة على غربلة الأخبارِ وتمحيصِها وتنقيدِها، وبيانِ حالها.

ويتميَّزُ عن غيره مِن الكتب التي أُلِّفت في بابه أنَّه أوَّلُ كتابٍ عام لِلتراجم في تُراثنا، تنـاولَ جميعَ العُصورِ التي سَبَقَتْ عصرَ المؤلِف، واشتملَت تراجمهُ على الأعلام المختارَةِ من جميعِ العالَم الإسلامي مِن شرقه إلى غربه، ولم يقتصِرْ على نوعٍ معين من الأعلامِ، بل تنوَّعَتْ تراجِمُه، فشملَتْ كُلَّ فئاتِ الناس مِن الخُلفاء والملوكِ، والأمراء والوزراء، والقُضاة والقُرَّاء، والمحدِّثين والفُقهاء، والأُدباء واللغويين، والنحـاة والشعراء، والـزُّهَّاد والفلاسِفة والمتكلمين، إلا أنه آثر المُحدِّثين على غيرهم، فإنَّه كان عظيم الإكبارِ لهم، شديدَ الكلف بهم.

وقد ترجم فيه للأعلام النُّبلاء مِن بداية الإسْلام إلى سنة (٧٠٠ هـ) تقريباً، وكسره على خمسٍ وثلاثين طبقة[١]، كُلُّ طبقةٍ تستوعِبُ عشرين سنة، تقريباًوأفردالمُجَلَّدَيْنِ الأولَ والثانيَ للسِّيرة النبوية الشريفة، وسِيَرِ الخلفاءِ الراشدين، ولكنه لم يُعِدْ صِياغتهما، وإنما أحال على كِتابه العظيم «تاريخ الإسلام» لِتؤخذَ منه، وتُضَمَّ إلى السِّيَرِ، كما سنوضحه فيما بعد.

والمنهج العامُّ الذي اتَّبعه الذهبي في الترجمة هو أنه يذكُرُ اسمَ المترجم ونسبَه ولقبَه وكُنيته ونِسبتَه، ثم يذكُر تاريخَ مولِده[٢]، وأحوال نشأتِه ودراستَه، وأوجُهَ نشاطِه، والمجالَ الذي اختصَّ به، وأبدعَ فيه، والشيوخَ الذين التقى بهم، وروى عنهم، وأفادَ مِنهم، والتلاميذَ الذين أخذوا عنه، وانتفعوا بعلمه، وتخرَّجُوا به، وآثارَه العلميةَ، أو الأدبيةَ، أو الاجتماعية، ثم يُبَيِّنُ منزلتَه مِن خلال أقاويلِ العُلماءِ الثِّقاتِ فيه معتمِداً في ذلك على أوثق المصادر ذاتِ الصلة الوثيقةِ بالمترجَم، ثم يذكُرُ تاريخَ وفاته، ويُدقق في ذلك تدقيقاً بارعاً، ورُبَّما رجَّح قولاً على آخر عند اختلاف المؤرخين[٣].

وقد نثر غيرَ ما حديث في تراجم المحدِّثين مما وقع له مِن طريقهم بإسنادٍ عالٍ موافقةً أو بَدَلاً أو مُساواة.

وهو على الأغلب يُراعي في طُول الترجمة أو قِصرها قيمةَ المترجَم

---

(١) هذا إذا كان المجلد الرابع عشر ذيلاً للكتاب. وأما إذا كان من أصل الكتاب، وهو الذي رجحه الدكتور بشار عواد في تقديمه لهذا الكتاب فتكون أربعين طبقة.

(٢) عُني المؤلف بذكر تاريخ الولادة لِما لذلك من أهمية في الاطمئنان على لِقاء المترجم لمشايخه، وسماعاته عليهم، ويذكر أحياناً عمر المترجم إذا لم يذكر تاريخ مولِده وذلك في نهاية الترجمة.

(٣) وقد يجدُ القارىء في بعض التراجم اختلافاً طفيفاً عما ذكرناه من المحتويات والتنظيم، وغيرُ خاف أن طبيعة المترجم هي التي تُحدِّدُ نوعية الأخبار، فقد عُني الذهبي مثلاً بإيراد أعمال الخلفاء والملوك والأمراء والولاة في تراجمهم، وأورد نماذج من شعر الشعراء، ومختارات من نثر الأدباء.

وشُهرتَه بينَ أهل علمه، أو منزلتَه بين الذين هُم من بابته، سواء أكانَ موافقاً له في المعتَقَدِ أو مخالِفاً، ورُبَّما تخلَّص مِن المادة الضَّخمة التي تحصَّلت له عن بعض المترجمين الأعلام بإحالة القارِىء إلى مصادرَ أوسع تناولته بتفصيلٍ أكثر.

وقد اتَّسم الذهبيُّ رحمه الله بالجُرأة النادِرَة التي جعلته ينتقِدُ كبارَ العلماء والمؤرخين، ويُنَبِّهُ على أوهامهم التي وقعت لهم فيما أُثِرَ عنهم بأسلوبٍ علمي متَّزن يُنبىء عن غزارةِ علم، ونبالَةِ قَصْدٍ، وقُدْرَةٍ فائقةٍ في النقد، والأمثلةُ على ذٰلك كثيرة تجدُها مبثوثة في تضاعيف هذا الكتاب.

ولما كان الذهبي قد استوعبَ في «تاريخ الإسلام» فِئتينِ من المترجمين: المشهورين، والأعلامَ، فقد اقتصر في كتابه هذا على تراجم الأعلام النبلاء، إلا أنَّه قد يذكُر في نهاية بعضِ التراجم غيرَ واحد مِن المشهورين للتعريف بهم على سبيلِ الاختصار، وتحديدِ وفياتهم.

وقد يضطرُه اتفاقُ اسمِ أحد المشهورين باسمِ أحد الأعلام الذي يترجمه إلى ترجمة المشهور عقبه للتمييز.

وكثيراً ما جمع بعض الأسر المتقاربين في الطبقة في مكانٍ واحد وإن لم يكُونوا مِن تلك الطبقة، فهو يُترجِمُ لإخوة المترجم وأولاده ومن يلوذُ به.

وكتابُ «سير أعلام النبلاء» وإن كان قد اسْتُلَّ مِن «تاريخ الإسلام» فقد ألَّفه بعدَه، وأضافَ إليه أخباراً كثيرة لا وجودَ لها في «التاريخ»، وتناولَ أشياء بالنقد والتحقيق لم يتعرَّض لها في «تاريخه»، وصِياغة الترجمة فيه تختلِفُ في كثير من الأحيان عما عرضه في «تاريخ الإسلام».

وإنَّ هذا الكِتابَ القَيِّمَ بما تضمَّنه مِن مزايا يَنْدُرُ أن توجد في غيره مِن بابته

قد استحقَّ به مؤلفه مع كتابه الآخر العظيم «تاريخ الإسلام» أن يُسمى إمامَ المُؤرِّخِين.

وَصْفُ النُّسَخ

كان لدينا عند البدء بالعمل النسخُ التالية:

١ ـ نسخة مصورة عن أصل محفوظٍ في مكتبة أحمد الثالث في استنبول برقم (٢٩١٠)، وتقع في أربعة عشر مجلداً، المفقودُ منها المجلدُ الأخير.

٢ ـ نسخة مصوَّرة عن نسخة أحمد الثالث الثانية، والموجودُ منها سبعُ مجلدات.

٣ ـ مجلدان صورا من مكتبة الإمام اللكنوي بالهند.

٤ ـ مجلدان مصوران يملكُهما المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد اعتمدنا من بين تلك النسخ النسخةَ المصوَّرة عن الأصل المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث في استنبول برقم (٢٩١٠)، وهي نسخة نفيسةٍ، كتبت بِخَطٍّ نَسْخِيٍ جميلٍ في حياةِ المؤلف عن نسخته التي بخطه، ثم قُوبِلَت عليها، وقد قام بنسخها لنفسه فرجُ بن أحمد بن طوغان الذي لم نظفَرْ له بترجمة تُبيِّنُ منزلتَه العلمية، إلا أنَّ هذه النسخة ـ وهي غايةٌ في الدقة والإتقان ونُدرةِ الخطأ، وكونِها مقابلة على أصل المؤلف ـ تشهَدُ له أنه مِن أهل المعرفة والضبط والإتقان.

وقد فَرَغ من نسخ المجلدِ الثالث ـ وهو أولُ الكتاب ـ ليلةَ الجمعة، مستهلَّ شهر شعبان المبارك سنة تسع وثلاثين وسبع مئة، وفَرَغ مِن المجلد الثالث عشر سنةَ ثلاث وأربعين وسبع مئة كما جاء في آخر ورقة منه.

وقد جاء على الورقة الأولى:

المجلد الثالث مِن سير أعلام النبلاء تصنيف الشيخ الإمام العالم الأوحد الناقد البارع، إمام الحفاظ، مؤرخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمانِ الذهبي، أمتع الله ببقائه، ونفع المسلمين ببركة دعائه آمين يا رب العالمين.

وإلى جانبه مِن الجهة اليسرى كُتِبَ بخط دقيق ـ هو خطُّ المصنف رحمه الله كما تبين لنا وللدكتور بشار عواد المتخصص بدراسته ـ ما يلي:

«في المجلَّد الأول والثاني سيرةُ النبي ﷺ والخلفاء الأربعة تُكتب مِن تاريخ الإسلام».

وإلى الأسفل من ذلك جاء نص الوقفية التالي:

وقَفَ وحبَّس وسبَّل المقرُّ الأشرف العالي الجمالي محمود[1] استادار العالية الملكي الظاهري أعز اللهُ أنصارَه، وختم بالصالحات أعمالَه جميعَ هذا المجلدِ وما بعده من المجلدات إلى آخر الكتاب، وعِدَّةُ ذلك اثنا عشر مجلداً متوالية من هذا المجلد إلى آخر الرابع عشر، وما قَبْلَ ذلك وهما الأول والثاني مفقودان، وقفاً شرعياً على طلبة العلم الشريف ينتفعِون به على الوجه الشرعي، وجعل مقرَّ ذلك بالخزانة السعيدة المرصدة لذلك بمدرسته التي

---

(١) ترجمه ابن حجر في «الدرر الكامنة» ٦ / ٨٧، فقال: هو محمود بن علي بن أصفر عينه جمال الدين الاستادار في أيام الملك الظاهر برقوق، جاء إلى حلب قبل أن يلي الاستادارية، ثم سافر إلى مصر، وبنى بالقاهرة مدرسة خارج باب زويلة، ووقف عليها كتب ابن جماعة التي اشتراها بعد موته وهي كثيرة جداً، وتنقلت به الأحوال، وحصل أموالاً جزيلة تفوق الحصر، وصودر مراراً بعد الحرمة العظيمة والوجاهة بالدولة الظاهرية. مات سنة ٧٩٧ هـ. ١ هـ. وقد ذكر المقريزي أنه كان في هذه المدرسة خزانة لا يعرف يومئذ بديار مصر ولا الشام مثلها، فقد كان فيها كتب الإسلام من كل فن.

أنشأها بخط الموازين بالشارع الأعظم بالقاهرة المحروسة.

وشرط الواقف المشار إليه أن لا يخرج ذلك ولا شيءٌ منه من المدرسة المذكورة بِرَهْنٍ ولا بغيره، وجعل النظرَ في ذلك لنفسه أيامَ حياته، ثم مِن بعده لمن يؤول إليه النظرُ على المدرسة المذكورة على ما شرح في وقفها، وجعل لنفسه أن يزيدَ في شرط ذلك ويَنْقُصَ ما يراه دونَ غيره من النظار، كما جعل ذلك لنفسه في وقف المدرسة المذكورة ﴿فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمُه على الذين يُبدِّلونه إن الله سميع عليم﴾ [البقرة : ١٨١].

بتاريخ الخامس والعشرين من شعبان المكرم سنة سبع وتسعين وسبع مئة. حسبنا الله ونعم الوكيل.

شهد بذلك	شهد بذلك
عبد الله بن علي	عمر بن عبد الرحمن البرماوي

وهذه النقول تدل على جملة أمور:

١ ـ أن المجلد الأول والثاني من هذا الكتاب الضخم لم يُعد الذهبي صياغتهما، وإنما اكتفى بما كتبه في تاريخ الإسلام وقد أحال عليه[1].

٢ ـ أن من قال: المجلد الأول والثاني مفقودان هو واهم.

٣ ـ أن النسخة الموجودة في مكتبة أحمد الثالث الآن كانت وقفاً على المكتبة المحمودية في القاهرة.

٤ ـ أن المجلد الرابع عشر كان موجوداً في المكتبة المحمودية قبل أن

---

(١) وفيهما سيرة النبي ﷺ وتراجم الخلفاء الراشدين، وكان علينا أن نبدأ بنشرها أولاً، ولكن عاقنا عن ذلك عدم توفر أصل جيد حينذاك، وأما الآن، فقد تيسر لنا بفضل الله وتوفيقه مجلد السيرة النبوية بخط المؤلف رحمه الله، وسنشرع في تحقيقه إن شاء الله.

تنتقل النسخة إلى مكتبة أحمد الثالث باستنبول. وهل هذا المجلد هو مِن تمام الكتاب كما هو ظاهر من نص الوقفية المثبت على كل المجلدات، أم أن الكتاب انتهى بالجزء الثالث عشر، وأن هذا الجزء هو الذيل على الكتاب للمؤلف، الذي استمد منه الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة ١ / ٣ . كل ذلك محتمل، ولكن الجزم بواحدٍ منهما ينتظر الدليل القاطع.

وصف مجلدات هذه النسخة:

١ ـ المجلد الثالث: يبدأ بترجمة أبي عبيدة عامرِ بن الجراح، وينتهي بترجمة أبي هريرة، ويبلغ عدد أوراقه (٢٥٢) ورقة. وقد جاء في آخره: وكان الفراغُ مِن نسخه ليلةَ الجمعة لمستهل شهر شعبان المبارك سنة تسع وثلاثين وسبع مئة.

٢ ـ المجلد الرابع: يبدأ بترجمة أبي بكرة نُفيع بن الحارث مولى النبي ﷺ، وينتهي ببداية ترجمة سعيد بن أبي الحسن البصري، ويبلغ عدد أوراقه (٢٨٦) ورقة عدا الورقة الأخيرة التي جاء فيها ما نصه: تم الجزء الرابع من سير أعلام النبلاء للشيخ الإمام الحجة شمس الدين بن الذهبي فسح الله في مدته، وهو أول نسخة نسخت من خط المصنف وقوبلت عليه، ويتلوه في الجزء الذي يليه وهو الخامس: أبو بردة بن أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري رضي الله عنه، وكان الفراغ من نسخه في سنة تسع وثلاثين وسبع مئة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وسلم.

وما بين الورقة (٢٨٦) وهذه الورقة نقص يقدر بثماني ورقات، وفيه من التراجم على التوالي تتمة ترجمة سعيد بن أبي الحسن البصري والأخطل،

والفرزدق، وجرير، وبشير بن يسار، وبسر بن عبيد، والأحوص الشاعر، ويزيد بن أبي مسلم، وأبو بحرية بسر بن سعيد، وسبلان، وسليمان، وزياد الأعجم، والراعي، والضحاك، وطلق بن حبيب، والضحاك عبد الله، وابنه عبيد وزياد بن جبير، ومحمد بن سيرين، وأنس بن سيرين.

وما ندري: هل هذا النقص من الأصل الأم المودع في مكتبة أحمد الثالث أم أنه سقط عند التصوير، ولم يتيسر لنا التأكد من ذلك إلى الآن، ونرجو أن نوفق إليه في المستقبل إن شاء الله، وقد استدركنا هذا النقص من النسخة الأخرى كما هو مبين في مكانه.

٣ ـ المجلد الخامس: يبدأ بترجمة أبي بردة بن أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري، وينتهي بترجمة سعيد بن أبي عروبة، وعدد أوراقه (٢٩٣) ورقة. وجاء في آخره: وكان الفراغ من نسخه سنة أربعين وسبع مئة.

٤ ـ المجلد السادس: يبدأ بترجمة معمر بن راشد اليماني، وينتهي بترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري، وعدد أوراقه (٢٩٣) ورقة، وقد جاء في آخره: وكان الفراغ من نسخه سنة أربعين وسبع مئة.

٥ ـ المجلد السابع: يبدأ بترجمة الحافظ المحدث زياد بن عبد الله البكائي، وينتهي بترجمة ابن أبي سمينة الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الهاشمي، وعدد أوراقه (٢٩١) ورقة، وقد جاء في آخره: وكان الفراغ من كتابته ليلة الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وسبع مئة.

٦ ـ المجلد الثامن: يبدأ بترجمة الحكم بن موسى البغدادي، وينتهي بترجمة اليسع بن زيد بن سهل الزينبي، وعدد أوراقه (٢٩١) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ من كتابته ليلة الاثنين لخمس مضين من شهر رمضان المعظم سنة أربعين وسبع مئة.

٧ ـ المجلد التاسع: يبدأ بترجمة عبد الله بن روح المدائني، وينتهي بترجمة أبي جعفر أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري، وعدد أوراقه (٢٨٢) ورقة، وينقص الورقة (٥٠) وقد استدركناها من نسخة أحمد الثالث الثانية، وجاء في آخره: وكان الفراغ منه لليلتين خلتا من شهر ذي الحجة سنة أربعين وسبع مئة.

٨ ـ المجلد العاشر: يبدأ بترجمة حماد بن شاكر، وينتهي بترجمة ابن أخي ميمي أبي الحسن محمد بن عبد الله البغدادي الدقاق، وعدد أوراقه (٢٩٠) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ منه ليلة الأحد لعشر خلون من شهر رجب سنة إحدى وأربعين وسبع مئة. وقد نقص من هذا المجلد الورقة (٢٨١).

٩ ـ المجلد الحادي عشر: يبدأ بترجمة صاحب الموصل حسام الدولة مقلد بن المسيب، وينتهي بترجمة أبي يوسف القزويني المعتزلي، وعدد أوراقه (٢٨٨) ورقة.

١٠ ـ المجلد الثاني عشر: يبدأ بترجمة أبي سعيد الدباس، وينتهي بترجمة ابن بُنيمان الهمذاني المؤذن المؤدب، وعدد أوراقه (٢٧٨) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ من كتابته ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وسبع مئة. وينقص هذا المجلد الورقة (٤٥).

١١ ـ المجلد الثالث عشر: ويبدأ بترجمة الحافظ أبي طاهر السِّلَفي، وينتهي بترجمة علي بن المعز الملقب بالمنصور، وعدد أوراقه (٣١٨) ورقة، وجاء في آخره: وكان الفراغ منه لليلتين خلتا من شهر صفر سنة ثلاث وأربعين وسبع مئة.

وصف نسخة أحمد الثالث الثانية:

١ ـ المجلد الثالث : يبدأ بترجمة أبي بردة الأشعري، وينتهي بترجمة ابن أبي عروبة، ويبلغ عدد أوراقه (٢٠٤) ورقات، وتاريخ نسخه (١٠٠٢) هـ.

٢ ـ المجلد الخامس: يبدأ بترجمة هشام بن عبد الملك، وينتهي بترجمة صالح بن موسى، وعدد أوراقه (٢٠٠) ورقة، وتاريخ نسخه (١٠٠٢) هـ.

٣ ـ المجلد السادس: يبدأ بترجمة زهير بن معاوية، وينتهي بترجمة ابن أبي سمينة، وعدد أوراقه (٢٥٩) ورقة، وتاريخ نسخه(١٠٠٤) هـ.

٤ ـ المجلد السابع: ويبدأ بترجمة الحكم بن موسى، وينتهي بترجمة أبي زرعة الرازي، وعدد أوراقه (٢٣٤) ورقة، وتاريخ نسخه(١٠٠٢) هـ.

٥ ـ المجلد التاسع : يبدأ بترجمة ابن مروان، وينتهي بترجمة الإمام الداوودي، وعدد أوراقه (٢٥١) ورقة، وتاريخ نسخه(١٠٠٣) هـ.

٦ ـ المجلد العاشر: يبدأ بترجمة القشيري، وينتهي بترجمة الشيخ أرسلان الجعبري الدمشقي، وعدد أوراقه (٢٥٢) ورقة، وتاريخ نسخه (١٠٠٣) هـ.

٧ ـ المجلد الحادي عشر: يبدأ بترجمة أبي الحسين الزاهد، وينتهي بترجمة ابن البيطار، وعدد أوراقه (٢١٤) ورقة، وتاريخ نسخه(١٢١١) هـ.

وصف المجلدين المصورين عن مكتبة الإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي في الهند:

١ ـ المجلد السابع: يبدأ بترجمة الحكم بن موسىٰ، وينتهي بترجمة

إبراهيم الحربي، وعدد صفحاته (٦٨٠) صفحة، ويعود تاريخ نسخه إلى القرن التاسع.

٢ ـ الخامس عشر: يبدأ بترجمة زهير بن حسن السرخسي، وينتهي بترجمة رضوان بن السلطان تتش، وعدد أوراقه (٢٥٥) ورقة وتاريخ نسخه القرن التاسع.

ومن مصورة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلدان من نسخة مؤلفة من عشرين جزءاً، هما:

١ ـ الخامس: ويبدأ بترجمة أبي بردة الأشعري، وينتهي بترجمة حماد بن سلمة، ولم نجد فيه ما يشير إلى المصدر الذي أخذ عنه، وليس فيه تاريخ النسخ.

٢ ـ السابع عشر: ويبدأ بترجمة أبي البركات الفيلسوف، وينتهي بترجمة ابن حمويه، وفي آخره: تم المجلد السابع عشر من سير أعلام النبلاء، يتلوه المجلد الثامن عشر من تجزئة عشرين، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.